

حقيقة التصوف

لأستاذ فوزى عرفة

أثار صديق الأستاذ محمد رشاد عطية أمراً هاماً فى نفسى عندما تحدث عن
عن الجدل الذى احتدم بين طائفة من زملائى فى دراسات الماجستير حول قيمة
التصوف وكيف اعتبره بعض زملائه الأفاضل د قوة سلبية والقائمين عليه مجموعة
من الدراويش من أصحاب المرقعات والعزلة والهروب من مشاكل المجتمع وصخب
الحياة ويجب ألا يكون له وجود فى القرن العشرين ..11

أقول أثار هذا الأمر فى نفسى مجادلات عديدة حول جوهر التصوف ومعدنه
وهل هو حقيقة شىء عارض فى حياة البشر وبخاصة من المسلمين أم أنه قطعة من
الإسلام يكتمل بها زينة المؤمن فى محفله واتصاله بربه وعلاقته بالآخرين . ولعل
فى هذا المقال أحاول أن أبين الصلة القوية بين التصوف والإسلام من ناحية وبين
التصوف والحياة من ناحية أخرى .

ظهر التصوف أول ما ظهر ملازماً للإسلام منذ فجره الناهض فاعتكف قوم
على العبادة وانقطعوا إلى الله تعالى وأعرضوا عن زهرة الحياة وزينتها وزهدوا
فما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه وانفردوا عن الخلق فى الخلوة للعبادة
تقرباً إلى الله محاولين بذلك أن يحققوا صورة المسلم الحق كما بدت لهم مرسومة
فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم
الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » ، وقوله
« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلاية
يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » ،
ولذلك وصفهم أبو نعيم الأصبهاني بقوله : « هم قوم أخلاهم الحق من الركون
إلى شىء من العروض وعصمهم من الاقتتان بها عن العروض وجعلهم قدوة

للتجردين من الفقراء لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا يلهمهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى ، ووصفهم صاحب الرسالة القشيرية بقوله :

أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أربلائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووقفهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منحه سبحانه لهم من التقليل والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه المخلوق حق ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل وأمره قضاء لا يرد .

وهكذا نرى أن هذه الطائفة العاملة الواعية قد تمثلت الإسلام تمثلا قويا وفهمت معناه فتمسكت بجوهره وتشربت مثله واتخذتها غاية لها تسعى إلى تحقيقها بطريقة شاقة لا يقدر عليها إلا ذو العزائم والمكارم ، وطريقهم في ذلك : تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى — فيما يقول الغزالي إن طريقهم « تطهير محض وتصفية وجلالة ومحاسبة للنفس ثم استعداد وانتظار للتجلي » .

ولكن ما الدافع إلى هذا الزهو الذى يبدو عند الصوفية ؟ هل هو سلبية وبعد عن الحياة ونفور وضعف وخور أم هو صادر عن قوة عنيفة وشدة مراس ؟ الواقع أننا لو نظرنا إلى تاريخ هذه الفئة لرأينا الرد على سؤالنا هذا لا يخرج عن أنهم أطلوا النظر في الحياة وأمعنوا في تدبرها وتفهمها فأنتهوا إلى أنها غرور من أقبل غلبها خدعته يهرجها وتسلطت عليه بزيتتها حتى لا يرى غيرها في نظره وبصيرته فتعميه عن معرفة الحق والتقرب إلى ذى العزة والاکرام يقول الحسن

البصرى : « الدنيا دار عمل من صحبها بالبغض لها والزهد فيها سعد بها ونفعت
صحبتها ، ويقول : « ابن آدم نفسك نفسك إنما هي نفس واحدة إن نجت نجت
وإن هلكت هلكت ولم ينفعك من نجا وكل نعيم دون الحنة حقير وكل بلاء دون
النار يسير » .

أجل ! الدنيا دار غرور وللآخرة خير وأبقى ! ذلك ما يؤمن به الصوفية ،
وما ينبغي أن يضعه كل مؤمن نصب عينيه فلو آمن أن غده ليس بين يديه وأن
أمسه أصبح بين يدي الله لما بقى له بعد ذلك إلا حاضره القائم ولحظاته الراهنة ،
يقبل عليها بحريته التي لا تحد فيملؤها عملاً صالحاً أو فساداً وخوراً . فإن فعل
الأولى نجا وإن أقبل على الثانية خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الحسران المبين .
هل ذلك الذي تهون عليه نفسه حين تقبل على الشهوة وتستعصى على إرادته
فيقال له : « ما أشد ما لقيت في سبيل الله ؟ » فيقول : « ما يمكن وصفه » فيقال له
« ما أهون ما لقيت نفسك منك » فيقول : « أما هذا فنعم ، دعوتها إلى شيء من
الطاعات ، فلم تجبني فمنعتها الماء سنة » . أقول هل ذلك الذي يفعل هذا كله بنفسه
وأكثر من ذلك كله يصدر عن سلبية وضعف أم يعقل ما يفعل لأنه يريد أن
يحشمها المشاق ويعودها الصبر على المتاعب والمصاعب حتى تهفو وترقى وتصل
إلى أكبر غاية وأفضل مورد ؟ .

أجل إن أعمال الصوفية صادرة عن إرادة إيجابية رقة دافعة لا تحركها دواع
سلبية بحال من الأحوال ، وليس أدل على ذلك من تلك الطرق التي يتبعونها من
تجلية للنفس وتنقية للقلب وتحلية للخلق واتصاف بالمعروف وإقبال على الخير من
جميع موارده ومصادره .

لقد فهموا القرآن وتدبروا معانيه وتحققوا بالشرعة ، وصاح صائح منهم ؛
« إذا نظرت إلى رجل أعطى من السكرات حتى يرتقى في الهواء فلا تنفروا به
حتى تنظروا كيف تجذونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشرعة » .
وهكذا اتصف هؤلاء القوم بصفات سامية واشتهروا بأخلاق حميدة ، وجعلوا
أبوابه تقر بهم إلى الله ذات منافذ عديدة من توبة وبجاهدة وخلوة وعزلة وتقوى
وورع وزهد وصمت ، وخوف ورجاء وحزن وجوع ، وترك شهوة وخشوع

وتواضع ومخالفة للنفس ، وبعد عن الحسد والغيبة واتصاف بالقناعة والتوكل والشكر واليقين والصبر والمراقبة والرضا والعبودية والإرادة والاستقامة والإخلاص والصدق والحياء والحرية والذكر والفتوة والجود والسخاء والغيرة وما إلى ذلك من صفات طيبة وسجايا حميدة ، فهم الفرسان الذين أعلوا من شأن الإرادة الإيجابية وقالوا : « الإرادة ترك ما عليه العادة وحقيقتها فهو من القلب في طلب الحق سبحانه ولهذا يقال إنها لوعة تحوى كل روعة » وهم الذين طلبوا الحرية عن الأغيار ولم يعترفوا إلا بعبودية الجبار القهار سبحانه ذو الجلال والإكرام .

قوم هذه صفاتهم وتلك أخلاقهم وسماتهم ، هل يمكن أن يقال عنهم إنهم قوة سلبية ؟ لم يكونوا هكذا في سالف الزمان ولا يكونون في حاضر العصر والأوان . لقد كانوا ثواراً على التقاليد الجامدة والعادة البالية ، وفتحوا صدورهم لاستكناه الكون وتلقى همساته وأسراره فاتسعت آفاقهم ورحبت بمجالاتهم وأصبحوا يناون عن الانطواء والعزلة وأثروا الحياة بمالهم من قوة حجة وصحة يقين ، ووقفوا أمام أعيان الحكماء يوم ضاعت الذمم ومشى الجميع في ركاب النفاق والمداينة وما هو ذا بهلول المجنون رضى الله تعالى عنه اجتمع به هارون الرشيد ، فقال له الرشيد : « كنت أشتهى رؤيتك من زمان » فقال لكني أتا لم أشتاق إليك قط . فقال له عظمي . فقال بهم أعظمك ؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم . ثم قال : كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه ، فسألك عن النكير والفتيل والقطمير وأنت عطشان جوعان عريان وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون . شفقته العبرة وبكى بكاءً مرأ .

وهكذا كانوا يقرعون الحكماء من آن لآخر بقارعة النذير التي لا تفرق بين العظيم والفقر ، فإذا دغواتهم حق وأقوالهم صدق ولا تزال نظرب ونعجب عندما نقرأ هذه الآيات البينات .

أجل ! ذلك هو الوجه الصحيح للتصوف . التصوف الإسلامى الذى يلتبس ينبوعه من كتاب الله وسنة رسوله ويرتشف من رحيق الإسلام الصافى فيمرع ويفيض ويملا الدنيا من حوله خيراً وبركات .

ولقد ران عليه — قشرة — غشاوة من الجهل وطامة من البلاء غشيت
جميع مرافق الحياة في الأمة الإسلامية حتى قال صاحب الرسالة القشيرية :
« ثم اعلوا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق
في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

ولكن بعد انتفاضة الأمة العربية وصحتها من رقادها الطويل تهيأت لها
وسائل القوة والمتعة على يدى رجال الثورة المباركة فعهدوا بالمشاعل إلى من يحسنون
حملها ، وكان من ميمون الطالع أن يحمل مشعل التصوف شيخنا وأستاذنا السيد
محمد محمود علوان ، فتعاون هو وجملة القوم وأفاضلهم على دفع العجلة إلى الأمام
والسير بها في الطريق الصحيح الذى سوف يعيد للتصوف الإسلامى مجده
وسخاه وثرأه .

والآن بعد أن انضحت أصالة التصوف الإسلامى وأنه هو والدين الخفيف
سيان ، فأتى أدعو إخوانى طلبة الماجستير على أن يقبلوا على هذا التراث الضخم
يشغف واهتمام ليتصفحوا صفحاته ويستجلبوا آياته ويعملوا على تجويده
وتبيينه وحسن عرضه حتى ترسخ تلك الدعائم فى الأذهان وتنضج شأخة الذرا
قوية البنيان .

فوزى عرفه

لا أمة بلا أخلاق ...

ولا أخلاق بغير عقيدة . .

ولا عقيدة بغير فهم ...

صالح الدين الأفضالى